الحرب والتقدم الاجتماعي

اقتصر دارون في مذهبه على القول بنشوء الاحياء دون غيرها وارتقائها شيئاً فشيئاً على مرّ العصور والاحقاب من ابسط الحالات وادناها الى اكثرها تعقيداً وتركيباً . ولكن غيره من العلماء توسعوا في هذا الحكم وجعلوا ناموس النشوء والارتقاء شاملاً لجميع الخليقة من حية وغير حية فادخل الفلكيون الافلاك تحته وجعلوها ناشئة مرتقية من السديم اللطيف الى اكثف الشموس والاقمار . وكتب كبار العلماء كالفيلسوف سبنسر وغيره المجلدات الضخمة في بيان ان الاجتماع خاضع للناموس ايضاً وان الجمعية الانسانية ارتقت من البداوة الاولى العارية من كل لباس وزخرف وبهرجة الى الحضارة الحاضرة الكاسية بكل ثوب وطلاء ومرط مرحل

انتشر هذا المذهب في الربع الاخير من القرن الماضي . ومنذ اول انتشاره الى الآن عمّ الاعتقاد بان الخليقة صائرة من حيدن الى احسن وان كل شيء فيها متقدم ومرتقٍ بلا سبيل الى المكث والتقهقر وان يكن ذلك التقدم وذلك الارتقاء بطيئين في سيرهما متلقلقين في حركاتهما الى امام والى فوق . فاذا قال قائل بعد ذلك ان هذا الشيء ما كث بحيث هو لا يرى متقدماً ولا متأخراً بل انهُ يُرجع القهقرى كان قولهُ هذا محلاً للشك والارتياب او الانكار البات . وهذا ما قالهُ الاستاذ هاورث من اساتذة جامعة كليفورنيا في مقالة نشرت في مجلة العلم العام الاميركية . قال ما ملخصهُ :

اعتدنا نحن الاميركيين فكرة التقدم الاجتماعي والتحدث بالآراء والعوامل والحركات الارتقائية حتى رسخ في اذهاننا ان التقدم عامّ وانهُ في طبيعة الاشياء . على ان الامر ليس كذلك اذ ليس هناك دليل كافٍ يؤيد الاعتقاد الشائع بان الناس عامة ومنهم امم اوربا وامتنا آخذون في سنن الارتقاء رغم شرورهم وجنونهم وخروجهم عن دائرة الاعتدال وتماديهم في فيافي الغواية والضلال . فان فكرة تقدم الاجتماع حديثة العهد وكل بحث ولو بحثاً سطحياً في حوادث النشوء الاجتماعي المسطرة في بطون التواريخ يعلم الانسان ذلك التقدم مقرد محلي محصور في زمانهِ ومكانهِ . فان الحضارات الاولية كانت غير متقدمة ولا يزال بعض الامم الحديثة كالامة الصينية مثلاً ما كنّا حيث كان تفضلاً عن ان الانحطاط والتأخر القومي ظاهرتان من ظواهر التاريخ كتأخر اسبانيا ورومية واليونان ومصر وقد كانت فيما مضى

موطن مدنيات عالية الكعب وارفة الظل . والحق يقال ان التأخر القومي اكثر شيوعاً من التقدم القومي وقد صدق «ماين» حيث قال «ان جمود النوع الانساني هو القاعدة وتقدمهُ هو الشذوذ»

واذا سلّمنا جدلاً ان مذهب النشوء الاجتماعي صحيح فان جميع الشعوب والامم نالت بعض قسط من التقدم في تاريخها . ولا بدّ ان تكون الامم الجامدة في مكانها من قديمة ومعاصرة قد تقدمت قبل الجمود . وغرض هذه المقالة درس هذا التقدم وخصوصاً الدور الذي مثلهُ الحرب على مسارح التقدم الاجتماعي في الماضي والحال

يقولون ان الحرب من العوامل اللازمة لتقدم الاجتماع ويظهر ان هذا القول اعتقاد شائع في كثير من البلاد . ولكنني مبيّن ان هذا القول وهذا الاعتقاد لا مسوّغ لهما . قلّب ما شئت من كتب الاجتماع تر الكتّاب متفقين على تعيين عوامل التقدم الاجتماعي وعلى بيان الاحوال والعناصر والمؤثرات التي تعمل على ترقية المدنيّة وان كانوا لا يفرّقون تمام التفريق بين القوى والطرق والوسائل التي تستخدم لذلك . فالمؤرخ الانكليزي «بكل» يعزو التغيرات الاجتماعية في كتابهِ «تاريخ مدنية انكلترا» الى الهواء والطعام والتربة والطبيعة عموماً . ومن رأي «جون فسك» الفيلسوف الاميركي ان الجمعية الانسانية ومحيطها هما العاملان الاولان في التقدم الاجتماعي . ولا يريد بالمحيط مجرّد الهواء والتربة والنبات والحيوان والارتفاع وامتداد السواحل وماهية المناظر الطبيعية والموقع الجغرافي بالنسبة الى سائر البلاد بل يريد ايضاً كما قال «الآراء والعواطف والتجارب والمشاهد التي كانت في الماضي فنُقلت الينا على يد التواريخ والتقاليد والآثار . وكذلك آراء الامم المعاصرة وعاداتها وطباعها المعروفة»

وقسم كارفر الانكليزي عوامل التقدم كما يأتي : العوامل الطبيعية والجيولوجية . العوامل العقلية . العوامل الاجتماعية والاقتصادية . العوامل السياسية والقانونية . ومنهم من اضاف اليها العوامل الجغرافية والبيولوجية والهيجينية والادبية والدينية الى آخر ما هنالك

واذا صرفنا النظر عما كتب في هذا الموضوع وجدنا ان العوامل التي تعمل على تقدم المجتمع قسمان خارجية وداخلية . اما الخارجية فثلاثة طبيعية وحيوية واجتماعية . والاول منها يشتمل على التربة والهواء وطبيعة البلاد الخ . والثاني نباتها وحيوانها . والثالث

الاوساط الاجتماعية التي تؤثر في مجتمع معين بالطرق المختلفة . واما العوامل الداخلية فقسمان الناس والاشياء التي عملها الناس او بعبارة اخرى الافكار ونتائج تلك الافكار كما تظهر في اللغات والآداب والعلوم والفنون والقوانين والاملاك والحكومات والاديان وما جرى مجرى ذلك . واعم العوامل الداخلية العامل الذي تشتق منهُ سائر العوامل وهو القوة المفكرة التي هي بمنزلة الدليل للارادة . وقد صدق من قال ان الحضارة بنت الارادة والعقل وثمرة ازدواجهما وتعاونهما

وخلاصة ما تقدم اولاً ان عوامل الارتقاء الاجتماعي كثيرة فيجب الحذر والاحتراس من ان تنسب الى احدها اكثر مما يحق لهُ عند بحثنا فيهِ . وثانياً ان الحرب لم تذكر بين تلك العوامل ولِمَ ذلك ؟ ألأنها أهملت ام لانهُ لا يصح حسبانها عاملاً من عوامل التقدم ؟ والجواب هو الامر الثاني فان الحرب ليست من عوامل التقدم وهذا يتضح لنا من البحث في معنى لفظة « عامل » . فالعامل هو كل شيء يستخدم للوصول الى نتيجة معينة وعدد العوامل التي نجد او نستخدم للحصول على نتيجة معينة هو على الغالب محدود ولكن طرق استخدامها مختلفة الى ما لا حدّ لهُ . وترانا نأخذ هذه وتبذ تلك حسبما يعن لنا ولكن العوامل لا تزال واحدة محدودة . فهل الحرب طريقة من طرق التقدم الاجتماعي

ان كانت الحرب طريقة من طرق التقدم الاجتماعي فهي ليست طريقة وحيدة ولذلك يمكن مقابلتها بمفعولها بمفعول الطرق الاخرى . وقيمتها في هذا الشأن تتوقف على نفقتها وتأثيرها بالنسبة الى وسائل التقدم الاخرى التي يمكن تصورها كالتربية والتعليم والتجارة والسفر وسائر طرق الاتصال والانتقال وهي وحدها التي يستطيع بها احد المجتمعات ان يساعد على تقدم مجتمع آخر . فاذا ظهر بالمقابلة فضل طريقة على اخرى فمن الخطل والجهل اختيار المفضول على الفاضل

على ان الحرب ليست واسطة لتقدم المجتمع الا مجازاً لان الواسطة يجب ان تكون اسمى مظاهر المعرفة والادراك كما قال دي غريف العالم الفرنسوي او اسمى مظهر من مظاهر القوة المدركة كما قال سبنسر . ذلك لانها كيفما كانت وأينما كانت تنطوي على غاية يراد بلوغها وعلى اختيار الطرق المؤدية اليها واستخدامها استخداماً مبنياً على تدبّر وروية . وقبل حسبان الحرب واسطة للتقدم الاجتماعي يجب اولاً حسبان التقدم غاية مرومة ثم خوض الحرب على نية ترقية الاجتماع بها ولا يكاد يحتمل ان امة ما شهرت حرباً عن تدبر وعمد وهي تنوي

بها ترقية حال المجتمع . ولا يكاد يحتمل ايضاً ان امة تعمل ذلك في مستقبل الزمان . فاذا لم يفعل احد ذلك فلا يصح ان تعدَّ الحرب واسطة من وسائط التقدم الاجتماعي وانما يمكن استخدامها من حين الى آخر لبلوغ غايات لها علاقة بالحكومة او الدولة او الطبقات المختلفة في الامة

رأينا ان الحرب ليست عاملاً للتقدم ولا واسطة للارتقاء الاجتماعي . فبناء على ذلك ليست واسطة لها لان الواسطة شيء يختار لبلوغ غاية او هي ما يتوسط بين الحالة الحاضرة والغاية المطلوبة . فان لم تجعل حكومة من الحكومات او امة من الامم او جمعية من الجمعيات التقدم الاجتماعي غرضاً نصب عينها ولم تتخذ الحرب آلة لبلوغ ذلك الغرض فلا يجوز عدّ الحرب واسطة لذلك التقدم او عاملاً من عوامله

لكن اذا لم تكن الحرب شيئاً من الاشياء التي تقدم الكلام عليها فما هي اذاً ؟ وما هي علاقتها الحقيقية بالتقدم الاجتماعي ؟

الحرب في نظر الاجتماع شكل من اشكال تفاعل الامم المختلفة . فان هذه الامم التي تخوض غمارها تتصادم وكلٌّ منهن تطلب ما تحسب فيه مصلحتها ورفاهها . واذا خاضت امة من الامم الحرب فانما تخوضها لتحقيق امنية واحدة من امانيّ احدى الجماعات التي يتألف المجتمع الاعظم منها لا لادراك غرض واسع النطاق يراد به ترقية ذلك المجتمع برمته . فالتقدم الاجتماعي ليس غاية مقصودة بها وان تكن كل امة من الامم المتحاربة تدعي ان غايتها تطابق التقدم الاجتماعي وانها تدافع عن كلّ ما كان غالي القيمة في الحضارة العامة . واذا لم يكن غرض الحرب التقدم الاجتماعي فهي شيء غير مقصود من الوجهة الاجتماعية وبعبارة اخرى ليست عملاً صناعيًّا من اعمال المجتمع الانساني يأتيه قصداً لترقية شؤونه بل ظاهرة طبيعية صرفة كالزلازل والمجاعات والاوبئة والسيول

فليس للحرب والحالة هذه علاقة بالتقدم الاجتماعي الاَّ لماماً لانها صورة من صور الاعمال التي تقدم عليها الجماعات وقد تكون نتيجتها تقدماً او تأخراً . فهي اوضح مثال للظواهر الاجتماعية غير المقصودة اي التي يُقدِم الناس عليها بلا انعام نظر ولا روية كما قال دي غريف

لكن يقول قائل ان الحرب افضت في بعض الاحيان الى التقدم الاجتماعي . وهذا وهم والصحيح انها افضت في بعض الاحيان الى التأخر . فقد نشأت بها ممالك وابيدت ممالك قامت مدنيّات واندرست مدنيّات وكان اثر ذلك في التقدم الاجتماعي على الدوام عرضيًّا

غير منظور ولا مقصود او مثل اثر القوى الطبيعية العمياء . فان هذه القوى غير المدركة تفضي احياناً الى نتائج مروجة للتقدم واحياناً الى نتائج مضادة لهُ ولكنها لا تتوخى انتاج تلك النتائج . فالحرب لذلك داخلة في باب تصرُّف الطبيعة لا في باب تصرُّف العقل . ومن خصائص الباب الاول الاسراف . فان الطبيعة مشهورة باسرافها والتقدم الذي تمهدهُ يقضي كثير النفقة غير اكيد . ولما كانت الحرب ظاهرة طبيعية في نظر الاجتماع فلا غرابة اذا ظهر عليها الاسراف . وربما كانت اعظم نموذج على الاسراف الاجتماعي

وسواء صدر الاسراف من الفرد او من الجماعة فهو عنوان سفه الرأي وقلة الادراك . فان وظيفة الادراك استخدام الاقتصاد في الوقت والوسيلة والعمل ليلوغ غاية معينة . فاذا وُجِدَ الادراك الاجتماعي لترويج التقدم الاجتماعي لم يعمد الى الحرب لما فيها من الاسراف وعدم الثقة بالنتائج . ولا بدَّ ان يفضي التقدم الاجتماعي العام الى منع الحرب اذ اطراد التقدم ودوام الحرب نقيضان لا يجتمعان

الجندي الفرنسوي

نشرت احدى صحف لندن اليومية الكبرى في صدرها مقالة لكاتب كبير معروف ترجمها عن الفرنسوية عنوانها « صنفان من الشجاعة » قدمها بمقدمة صغيرة . والاصل الفرنسوي من قلم المسيو جورج بيردون نشر في مجلة « مركور دي فرانس » والمقدمة من قلم المستر وورد برَيس المترجم نشرها في صدر الدايلي مايل . وقد رأينا ان نترجمها الى العربية لما تضمنتاهُ من الوصف البليغ والمعاني البديعة قال الكاتب

« مما يقضي بالعجب في هذه الحرب العظمى التي اقتضت منا مجهوداً لم تقتضهِ حرب قبلها انهُ لم يحاول احد درس سلوك الجندي في ساحة القتال وشرح ما يجول في صدرهِ من المخاوف وما يختلج فيهِ من الآمال

« نرى صحبنا يغادروننا الى ميادين القتال — رجال كرهوا التعب واحبوا الراحة واولعوا باهلهم وشائقهم الحياة كما نشوقنا . واول ما نسمع عنهم بعد غيابهم عنا انهم يحتملون النزع وحشرجة الصدر بلا شكاية ويجودون بارواحهم والنكتة على شفاههم — ذلك كلهُ ليتقدموا ليد باع او باعين من الارض